حل الطائفية بـ "الطائفية"

يروى أن الحارث بن عباد اعتزل في حرب "البسوس" القتال الذي دار بين قومه(بني بكر بن وائل) وأبناء عمومته بني تغلب، رغم بسالته القتالية المشهود بها في مواقف سبقت اندلاع الحرب، ما يؤكد أن دافع اعتزاله إنما هو كراهيته لإشعال نار الفتنة المستعرة أصلاً، لكن صبره نفد عندما حاول فعل شيء يطفئ الفتنة، فأرسل ابن أخيه لأهل الدم ليقتصوا منه، ويكون خاتمة الاقتتال.

إلا أن المهلهل أخا المقتول (كليبا) بعد أن نفذ الحد، فاخر بقولته الشهيرة: "بؤ بشسع كليب"، ما استفز المصلح بن عباد وأرغمه على المشاركة في الفتنة، بعد أن أنشد: "قربا مربط النعامة مني/ إن قتل الحر بالشسع غال"، وغدت قصيدته مثلاً لكل من انتهى حلمه، وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها. وهكذا كان اتخاذ الديكتاتور "أضحية العيد"، فعلاً يختصر كل ما جرى في العراق منذ الاحتلال، وَسَجَّلَ مؤشراً على كثير مما يتمنى المخلصون أن لا يصير مستقبلاً.

ووجه المقارنة أن قتل (كليب) كان الفتنة الكبرى مثل الاحتلال، والتضحية برئيس آدمي كقتل الحر في مقابل شسع نعل،

بلغت المنتهى في الاستفزاز.وربما كان أسوأ ما في مقتل الرئيس، هذا الاستدعاء لكل جراح التاريخ بين الطائفة السنية والشيعية، حتى أخرج العلماني من علمانيته والليبرالي عن ليبراليته، والإصلاحي عن فكره التقريبي، وأعاد إلى أذهان التلاميذ فضلاً عن الشيوخ أحداث الماضي كما لو أنها وقعت يوم الأضحى الماضي.

وتبعاً لذلك فإن "الحياة" تطرح على المختلفين سؤالاً حول ما إذا كان: إطفاء نار الطائفية هو في عودة القومية أو العلمانية أو الترسيخ لليبرالية، أم أن إخماد نيرانها يكون بتأجيج طائفية مقابلة على الصعيدين الفكري والسياسي، على رأي المثل العربي: وداوها بالتي كانت هي الداء؟!

في المحور الأول، الذي يتساءل عن العلاقة بين الطائفية وظهور العلماء من الجانبين في المقدمة، يجزم العضو الشيعي في كتلة إياد علاوي في البرلمان العراقي إياد جمال الدين، بأن "رجال الدين غير المعتدلين هم الذين يشعلون غالباً وقود الفتنة"، ولا حظ أن ذلك يتم حيناً بواسطة الأتباع، وطوراً بواسطة الزعيم الديني نفسه.

وتتقاطع مع هذا الرأي الكاتبة السعودية جهير المساعد، التي ترى أن "علماء الدين تاريخياً يترددون بين مطفئين للطائفية ومشعلين لها، ولذلك فإن معظم الحروب الطائفية أشعلتها في الأساس فتاوى رجال الدين، كما أن الفتن التي تمت السيطرة عليها ساعدت طوائف من العلماء في إطفائها".

ولذلك فإنها تعتقد أن تحييد علماء الطوائف المتناحرة عن العراك السياسي "ربما يشكل حلاً مرحلياً، لتجنب التصعيد في مسائل قابلة للاشتعال"، وهي في الوقت نفسه لا تؤمن بإطفاء الروح الطائفية عبر "الاحتواء" الذي تصفه بالاستقواء، ولا الحوار وإنما "بصياغة جديدة تبرمج الطفل من الصغر على ثقافة وطنية، تربيه على الاعتراف بكل الكيانات التي تشاركه في الوطن، وأنها ليست فئات متصارعة ضد بعضها".

ومع إقرارها صراحة بأن الانطلاق من الخلفية الدينية يأتي في صالح إشعال أكبر قدر من الطائفية، إلا أنها أقرت بأن "كل الأطراف الأخرى الليبرالية والعلمانية وسواها، وقعت في فخ الطائفية مثل الإسلامية، ولكنها تتفاوت في ترجمة قناعاتها". وجزمت بأن كل الشعارات تتبخر أمام "اشتعال الروح الطائفية، التي لا تستثني أحداً".

الحل لدى المتنورين

ويرد عضو مجلس الشورى السعودي الدكتور حاتم الشريف على القول بأن إخماد الطائفية مرهون بتحييد رجال الدين، بالقول: "فكرة إبعاد رجال الدين مستحيلة التطبيق، بسبب تمسك اتصال الشعوب الإسلامية الروحي بالتعاليم الإسلامية والمعاني الإيمانية التي يتعلمونها أو يتلقونها من رجال الدين، وتمسك الناس بهذه الشريحة واضح في نتائج الانتخابات التي سحق فيها

الإسلاميون القوميين والشيوعيين والعلمانيين وغيرهم في كل أنحاء العالم العربي والإسلامي".

ولكن الحل في نظر الشريف الذي يعد أحد أبرز علماء السنة في السعودية هو " في الإنصات إلى المرجعيات المتنورة التي تدير الأمور في هذه المرحلة، فليس علاج الطائفية بإذابة الفوارق الحقيقية بين الطوائف كما يعتقد بعض الناس، وإنما بخطاب منصف يدعو إلى التعايش بين المختلفين، فالإسلام الذي استوعب أهل الذمة وهم اليهود والنصاري الذين يدينون بغير الإسلام، لن تقتصر تعاليمه عن تحقيق التعايش بين الإخوة في الدين الواحد، وإن كان بينهم اختلاف شديد في بعض المسائل، والملاحظ أن الخطاب غير المنصف يصدر من الطائفتين على حد سواء".

وفي المحور الثاني الذي يناقش ما إذا كان يجدي مع الطائفية، إشعال نظيرتها المضادة، لكنه يرفض ذلك، لكونه على يقين بأن "إشعال نار الفتنة الطائفيّة ليس في صالح العالم الإسلامي كله، بل في صالح أعدائه من الدول ذات الأطماع والأحقاد فيه؛ لأن الفتنة الطائفيّة تزيد من ضعف المسلمين، (فوق ضعفهم) في القدرة على مواجهة عدوّهم المشترك، إلى حدّ اللجوء إليه لكي ينصرهم ضد بعضهم، فيؤدّي ذلك إلى بَسْط العدو نفوذه علينا جميعاً، لنصبح وقد تسلّط علينا هذا العدوّ المشترك، وخسرنا جميعًا كل ما كنّا ندافع عنه"!

الطائفية المضادة... تنقذ الجميع!

لكن الكاتب السعودي حمد الماجد يقف على النقيض تماماً من الشريف، إذ يرى أن حضور النفس الطائفي المضاد "أفضل حل آني لردع الطائفة الأخرى عن ممارساتها الخاطئة". وأكد أنه لم يعد مقبولاً " تحت وطأة التهمة بالطائفية، السكوت عما يجري لأهل السنة في العراق لأن مثل هذه الصراحة في التحذير تجعل الأطراف الشيعية الرسمية أو الشعبية أو الميليشياتية التي انزلقت في أتون التطهير الطائفي ترتدع عن جرائمها وتحسب لردود السنة بقياداتها السياسية العالمية والعلمية والفكرية ألف حساب، وبلغة أكثر صراحة فإن حل معضلة السنة في العراق سيستفيد منه عموم الشيعة، وكل الطوائف في العراق بل ويجنب دول المنطقة الانزلاق في أتون فتن طائفية داخلية وخارجية "!

وبَرّرَ دعوته تلك إلى "كون سحب دخان فتنة العراق، بدأت روائحها القذرة تخنق المجتمعات العربية حولها، والكل الآن يضع يديه على قلبه من حريق لا سمح الله لا يبقي ولا يذر، والمشكل أيضا أن الناس قادة وعلماء ومفكرين، تهمس بالحلول العملية الصريحة في المجالس والمنتديات الخاصة، وتتكلم بكل تلقائية، لكن لا أحد يجرؤ أن يتحدث بكل شفافية وصراحة، لأن سيف التهمة بالطائفية مسلط للإجهاز على كل صوت صادق، يريد أن ينقذ الجميع وكل الطوائف والاتجاهات من هاوية مهلكة للجميع".